

الفصل الرابع

الربيطة^(١)

واطَّلع في سحابي هذا الشيطان الذي تتلأأ على وجهه مسحة ملك، فهو
أخبث الشياطين لأنه يسوق إلى الهلاك في نزهة على شاطئ نهر الحياة.

هي فلانة؛ كانت امرأة فرنسية ربيطة لرجل عرفته قديمًا لأعرفها منه؛
فأكتب عنها رأي العين وأكون أفهم بها وأدنى إلى حقيقتها؛ كما يريد عالم
الطبيعة أن يكتب عن بركان يتأجج، فهو يدلف إليه يطلأ على الأرض كأن تراها
حريق يتنفس آخر أنفاسه.

ما ساح رجل في العمران، ولا ضرب في مجهل من الأرض، ولا ضل في تيه
منها، ولا كشف للناس غمضًا من غموضها، ولا تطوح في بحر من أبحارها
إلا وأنت واجد من مثل ذلك معاني في نفوس النساء، كأن هذه المرأة تمثال
مصغر خلق بمعانيه في مقابلة الأرض بمعانيها، فهي في روح الرجل إما
الخصب أو الجذب، وهي له في الحياة إما المالح أو العذب، وهي منه العامر
والخراب ولكن في القلب.

* * *

كان صاحبنا فتى تلمع عليه غرة الشباب، وقد رق حتى كاد يخالط حد
الأنوثة، ولأن حتى قارب أن يفوت معنى الرجولة، وظرفَ حتى أوشك أن
يكون إنسانًا، تفتتح في روحه معاني الزهر؛ ولكنك إذا كنت رجلًا صحيحًا

(١) الربيطة: هي المرأة البغي تربط بأجر أو بعقد مدني في بيت رجل، فتتزل منزلة الزوجة على أنها
مدبرة بيته، وتكون ساقطة المعنى شريفة الاسم.

أممرته على عينك كما تمر كتابًا لا تريد أن تقرأه.

فقد تمدن في أوربا ولبث عن قومه ما شاء الله ثم رجع إليهم كأن أمه لم تلده وكان أباه جده الأعلى، فبينه وبين هذا بضعة أجداد، منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو الهر، وأصبح يحس أن كل شيء في هذا الاجتماع الشرقي مسلط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغلظة والجفاء والعنت والأذى، كأنه رحمه الله ابن الضباب، فلما برز إلى هذه الشمس وضحا في أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخر.

وكان من هؤلاء الفتیان إذا تعلموا في أوربا نفوا جهلهم بالعلم، ثم نفوا علمهم بجهل آخر، ثم جاءونا كحرفي النفي: ما، ولا. فليس منهم إلا التكذيب والإنكار والشك. وتراهم أظرف وأجمل وأزهى من فراشة الربيع، لا يريدون الحياة إلا أزهارًا، ولا يطيقونها إلا ربيعًا، وعلى أزهارهم وربيعهم فليس لنا منهم إلا نقط من الألوان، وأصوات من الطين، وأجسام ليس فيها رجالها.

* * *

سألت هذا الفتى مرة: «أنت مصري؟».

قال: «وطني صميم».

قلت: «أفترى أنك تصلح في عملك وتهذيبك أن تكون مثلاً يتأسى بك نشء بلادك؟».

قال: «إني لأرجو ذلك».

قلت: «وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية ومساواتها بالرجل في

الحرية المطلقة وبعثها من هذه القبور التي تسمى المنازل؟».

قال: «ذلك مذهبي».

قلت: «فكيف ترى إذا اقتدى بك المصريون فأصهروا إلى الأوربيين واخلطوا الشمل بالشمل؟».

قال: «لعل ذلك خير الطب لبلادنا، فلا معدل عنه في رأيي؛ إذ يأتيها بالدم الجديد، ويدمج في طباعها النظام والدقة، ويبنى البيوت من داخلها».

قلت: «أحسنت، بارك الله عليك؛ فكيف ترى إذ سألتك التسوية، وقلنا لك دع أختك تصب إلى رجل أوربي وتتزوج منه إجارة، وتأت به إلى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك، ثم لتفعل كل امرأة مصرية فعلها، فيكون لكم أوربيات ويقوم عليهن أوربيون؟».

قال: «أعوذ بالله!».

قلت: «فعل الله بك وفعل! أفبيلغ من غفلتك أنت لا تعرف لعنة الله إلا إذا رأيته ملء مملكة، ولا تعرف حق وطنك فيك إلا حين تراه غريباً منقطعاً لا حق له في واحد من أهله، ولا تدرك واجب التضحية ببلداتك وشهوات نفسك إلا بعد أن ترى الوطن من اضطراب الموت في مثل حال الذبيحة، تدحض برجلها تحت سكين الذابح؟».

قال: «فما أنا وأمثالي إلا شذوذ من القاعدة التي يجب أن تبقى أبداً قاعدة».

قلت: «فعليكم غضب القاعدة ومقتها وسخطتها. والله لأن تفجع البلاد فيكم جميعاً وتستركم بالقبور رمة بعد رمة خير من أن تتلقد منكم بليّة الحياة في اختلاط الأنساب، وارتداد الأسماء العربية عن دينها، وكساد النساء

الشرقيات، وتخت الرجال الشرقيين، وتدسس هذه العروق الفاحشة اللئيمة في ذرية الوطن».

قال: «فكم من امرأة وطنية هي حمل على ظهر زوجها؟».

قلت: «وكم من امرأة إفرنجية هي كيّة على قفا صاحبها؟».

قال: «فماذا تصنع ونساؤنا جاهلات لا صبر عليهن؟».

قلت: «أفتزحق روحك إذا مرضت أم تطبّ لمرضك في أناة وصبر؟ وهل تفر من وطنك إذا ابتلاك بتضحية أم تثبت وتتجلد؟ ثم ماذا أفدنا من علومكم إذا لم يحمل كل عالم منكم جاهلة منهن فيعلمها ويثقفها ويخلصها إخلاص الذهب الصافي ويربح ثواب الوطن فيها؟ وإذا كنتم تهملون نساء بلادكم لأنهن جاهلات فحدثني: أفلا يزيدهن ذلك جهلاً وضياًعاً، ويضاف مصيبة البلاد فيهن وفيكم، ويكون تركهن الذي قد يستصلح سبباً لما وراءه من الفساد الذي لا صلاح له؟».

«وهل ترون المرأة الوطنية منكم إلا كالزهرة: نضرتها في غصونها وأوراقها، فإذا طرحتها غصونها عمل منبتها الاجتماعي فيها - وهو التراب - حين تتصل به عكس ما كان يعمل حين لم يكن يصل إليها إلا من فروعها وأوراقها غذاء يحمل روح الماء وروح الشمس؟».

«أما والله إنكم فئة لا تعد إلا في مصائب وطنها، وإنكم لكالأجنبي، ما دام أحدكم لا يصل أمومة أولاده بتاريخ أمه؛ وإنكم لكالغاضب، ما دمتم تغضبون حتى نساء الوطن في رجال الوطن؛ وإنكم لكالعدو، ما دام كل واحد منكم حرباً على بيت. ألا فدعونا من الجاهلين، فقد يكون من بعض عذرهم الجهل؛ ومن المتلصصين، فمن عذرهم الحاجة؛ ومن المفسدين، فمن عذرهم

سوء التربية؛ ومن الساقطين، فعذرهم ضعف النفس؛ ومن الخاملين، فعذرهم الترك والإهمال؛ ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى، فكلها مسوغة أذارها المحمولة على محاملها، وكلها أقرب إلى الدهماء^(١) منها إلى المتعلمين، وإلى أخلاط الناس منها إلى الخاصة، وإلى السفلة منها إلى العلية. ولكن ما عذرکم أنتم عن شهوات أنفسكم وإيثاركم هذه الشهوات واستهتاركم في هذه الأثرة؛ يعجز أحدكم أن يكسر جماع نفسه فيجني على نفس من نساء وطنه، هي التي زهد فيها واستبدل منها، وعلى نفوس أبناء وطنه، هم الذين سيعقبهم من ذريته ويأتي بهم للبلاد أجسامًا غابت قلوبها، ونفوسًا بردت دماؤها؛ ينزعهم العرق الأجنبي من أمهاتهم اللاتي ولدنهم إذا حمي دم البلاد لبعض أغراضها، ويكونون في أمراضها من أسباب موتها، وفي صحتها من أسباب أمراضها.

«ما لكم تنزلون أنفسكم منزلة الطفل البكر من أهله: ليس له إلا حظوظه وشهواته، مسوغًا كل ما يقترحه عليهم؛ لأنه هو كان اقترحهم على الله، محمولًا على قلوبهم؛ لأنه بعض قلوبهم، يفسد المتاع، ويحطم الآنية، وتنزو به النعمة نزوتها فتجعل نصف عقله جنونًا، ونصف أدبه حمقًا، ونصف المنفعة به ضررًا، ونصف ظرفه عتًا، ونصف لينه مشقة؛ ويكون خيره نصف الخير، أما شره فشر اثنين؛ فهلا كنتم من أهل بلادكم كالأب من أولاده: يرى حق ضعفهم أكبر من الحق الذي لقوته، وواجب مرضهم فوق الواجب لصحته؟ فهو يبذل سعة نفسه في ضيق أنفسهم، ويحملهم صغارًا ليجعلهم كبارًا، ويصبر عليهم حقًا ليجعلهم عقلاء، ويرى عمره كأنه من بعض أرزاقهم وهو لا يستخلف من العمر شيئًا، وحواسه كأنها جاءوا إليه من السماء بعد أن اشتروه من الله، وباعه الله منهم بتلك النقطة الشابكة فيهم من دمه».

«ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بمحاريث بدلاً من هذه المواريث؛ وجئتم بالسباد بدلاً من هذا الوساد؛ وبالبهائم للسواني لا بالحلائل والغواني؛ وببضائع الحوانيت لا ببضائع أنطوانيت. وليتكم إذ كنتم رجالنا لم تغلبكم نساؤهم، وإذ كنتم سيوفنا لم تأسركم دماؤهم؛ ويا ليتكم لم تنتعموا وتأنثوا، فكانت البلاد تجد منكم أهل البأس؛ ولو تعلموا وتخشوا، فكانت الأرض على الأقل تعرف منكم أهل الفأس».

* * *

ذلك هو الرجل. أما صاحبه فامرأة فرنسية، جميلة الوجه في طلعة الصبح، شابة الجسم شباب الضحى، متلهبة الأنوثة كشعاع الظهيرة، رقيقة الطبع رقة الأصيل، زاهية المنظر في مثل شفق المغرب من تألقها، ثم هي تنتهي من كل ذلك إلى مخبر أشد ظلمة من سواد الليل. ومن أين اعتبرت ألفتها رذيلة مهذبة، يترقق فيها ماء العلم، ويجول في حسنها شعاع الفلسفة، كأنها عين فاتنة تدور فيها دمعة دلال.

ولم أكد أراها حتى أخذني جمالها؛ فإن لها عينين ركبنا تركيباً يجرم المصائب على القلب، تلقيان أشعة ضاحكة أو عابسة يخلق منها للقلوب حوادث وتواريخ؛ وترمي بنظرات تبرى الصدور أو تمرضها؛ وتبسم بوجهها كله نوعاً من الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية في وجهها قبلات؛ أما افترار شفيتها فهو جمال على حدة، يشبه نقل معاني الخمر من فم إلى فم.

امرأة ساحرة، لا أرى إن كانت بُنيت على السحر أم على الحب، ولا إن كان هذا الحب قد خلق لعنة عليها أم هي خلقت لعنة عليه؛ والحب دائماً بركة امرأة، ولعنة امرأة! والتي تزرعه في كل مكان هي التي لا تحصد منه شيئاً؛ فإن نالها شيء منه كان تعباً عليها روحاً لسواها.

وأشد ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة اجتماع شهواتها في صوتها الندي
المستطرب المتحزن، الذي لا يخلو أبدًا من حرف تسمع فيه همس قبله من
قبلاتها.

بيد أني مع كل ذلك استعصمت بفلسفتي وحكمتي؛ فلم أرها إلا في مثل
حريرة التفاحة إذا أفرط عليها النضج فايضت واحمرت وفاحت ولمعت، وإن
العفن لباد من تحتها يحذر منها وينذر، وفي مثل فروة الدب: استرسلت لانت في
نعومتها، ولكن منفعة منها إلا بقتل لابسها وإزهاق الحيوان كله في سبيل
الجمال الظاهر من جلده.

ونظرت إليها نظرة تخطت بها الشباب وأيامه فإذا هي بائسة أملق الدهر
حسنها وكان ذهبًا على جسمها وفضة، وإذا هي عجوز هالكة قد انحنت تحت
لعنات ماضيها، وتركتها دنياها كالسجن المتهدم؛ لا يذكر مع انتقاضه إلا
بلصوصه ومجرميهِ وعقابيهِ وآثاميهِ، وتشقى بمعانيهِ بعد الخراب حتى
حجارتِهِ وحتى ترابه.

وأبصرت في هذه الحسناء اللعوب التي تستوقدها الضحكة بعد الضحكة -
تلك الهامدة المريضة التي تطفئها الحسرة بعد الحسرة؛ وسقطت الشجرة
الخضراء النامية إذا في مكانها جذع خشبي ملقى زهد فيه نور السماء وطين
الأرض معًا.

وتمثلت لي هذه المتكئة على طرازها وأرائكه تتبرج في سندسها وحريرها،
فرأيتها ممدودة في حفرتها مسجاة بأكفانها، قد هيل عليها تراها، ولم يرحمها
راحم ولا النسيان يستر رذائلها عند من عرفوها، وقد اجتمع عليها بعد
عشاقها من دود الناس عشاق آخرون من دود الأرض؛ ويفنى جسمها حين
يفنى ويبقى ضميرها الروحي إلى الأبد ضمير مومس.

فلما وضعت أمرها على ما خيل إليّ من عاقبتها، إذا هي تفور كما يفور النبع القدر بالحماة^(١) التي فيه، وإذا هي كالخشبة المتقدة في حريقها: من فوقها ظلل من النار ومن تحتها ظلل، وإذا جمالها قد استحال في عيني وانفصل منها فأظهرها وظهر معها في بريق الزجاجاة من الحمر بجانب السكير المتحطم، تتساقط نفسه مرضاً وسكرًا، فكل ما كان فيها جمالاً فهو فيه أقبح القبح.

ورثيت لها أشد رثاء وأبلغه في الرحمة والرقّة، حتى عادت نظراتها تقطر على نفسي دموعاً سخينة كدموع الذل، ويا حرة قلبي من الإشفاق عليها وأنا أرى في احمرار جهرتها سواد فحمها، وفي أسباب سرورها أسباب همها! ويا لهفي عليها إذ أرى هذه الجميلة، التي لم تنظر أكثر ما نظرت إلا إلى خطيئة، ترفع نظرها أحياناً إلى السماء بقوة في داخلها، كأنها تقول لمن يفهم عنها: إن هنا القدر وهناك المقدّر! ويا بؤسها حيث لم تعد تطهر في روعي إلا كما يتخايل ظل القمر في الماء؛ أنظر فيه الصورة من غير معنى، والضوء من غير قبس، وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر!

* * *

والمّت بما في نفسي، وكانت تقرأ في وجهي قراءة؛ فإنه ليس ذو عيني ينكشف لعينه سر العاطفة الذي يترقق في الدم إلا من خالط القلوب وغلب عليها بخير ما في الخير أو شر ما في الشر، فهو يتدسس إليها مع ملائكتها أو مع شياطينها. وإنما خلقت هذه المرأة وأمثالها في هذا الجمال وهذا الظرف وهذا الفساد لتستطيع أن تمزج الشيطان بقلب من تغتره مزج المادة بواسطة بينهما من قوة ثالثة متهيئة لهما معاً؛ فهي بجوهرها مسلطة على القلب غالبية على أمره، كتسلط السرور والكآبة وغلبتهما طبعاً بما فطر الإنسان عليه.

(١) الحماة: طين أسود متين.

وقلما لصق الشيطان بقلب، ما لم تكن في هذا القلب مادة من اللذة أو الكآبة فكلتاها كيمياء الخطيئة والمعصية والشك، ولرب عابد زاهد طاحت به كآبته فقذفته إلى النار كما تقذف بالفاجر لذاته، فيلتقيان منها في غمرة واحدة، وإن كانا في العمل على طريقين متدابرين^(١). وما أشبه إسراف اللذة أن يكون الرجاء اليأس؛ فالمستهتر بهذه اللذة يغلو في استمتاعه غلو من ظلم نفسه لا يتحرج ولا يتورع. وما أشبه إعانات الكآبة أن يكون اليأس الراجي؛ فالمبتلى بالكآبة يجفو عما عداها جفاء من ظلم نفسه لا يتسمح ولا يترخص. والنفس الغالية التي جاوزت قدرها كالنفس الجافية التي انحطت عن قدرها: كلتاها على طرف يمين الشر وشماله.

* * *

ونظرت إلى تلك المرأة نظرة حزت في قلبي؛ لأنها لا تسألني المدح وكذلك لا تريد مني الذم. وبعد أن رضيت أن تسمع لي كأنها تقرأ كلامي في كتاب، وواثقني على أن تعتبرني مخاطبًا فكرها دون شخصيتها، ومحاور فلسفتها دون تاريخها.

قالت: «أحسبك لست كغيرك من الناس».

قلت: «ولا أنا كالملائكة».

قالت: «فتعرف الخطيئة الإنسانية وتقدرها قدرها؟».

قلت: «وأعوذ بالله منها وأتأماها».

قالت: «وتعرف ضعف الطبيعة؟».

(١) أي: مختلفين متناقضين.

قلت: «ومعاندتها وصلابتها أيضًا».

قالت: «فكيف تراني؟ أأست تصف المسألة السماوية على الأرض؟ وهل أنا إلا معنى متجسم من معاني القدر؟ وهل خرجت من سلاتي إلا كما خرجت الخمرة من عناقيدها؟ وهل خلقت جميلة غالية كالدينار إلا لتشتري بي بعض أوقات السعادة؟».

قلت: «أما المسألة السماوية فإن كنت نصفها فقد كان الشيطان نصفها كذلك، وأما القدر المتجسم فلعل الحريق في بيت من نُكِبَ به أجمل وأخف احتمالاً، وهو مع ألوانه الفنية حريق، ولا يسمى أبدًا إلا حريقاً؛ وأما الخمر فهل هي إلا عُقُونة أسكرت لأنها عفونة؛ وأما الدينار الذي تشتري به أوقات السعادة فهو نفسه الذي يغري اللصوص ويوجد لهم. وإذا كانت هذه السعادة -كما تصفينها- في نشوة الخمر، فهل تشتري الخمر إلا وفيها سكرها ومرضاها وجنونها؟».

قالت: «فحدثني لم كان الحب إذن؟ وهل خلق إلا للاستمتاع به من حيث يتفق وعلى أحسن ما يتفق؟».

فقلت: «إنما خلق الحب قوة ليقيد بقيوده كسائر القوى الطبيعية. فأنت تصدعين عنه كل قيوده وتتخذيه تجارة في النفوس، فلا ترددين يد لامس، ولا تمتنعين على دعوى فيها ثمنها، وبذلك تجربين مجرى القوة المدمرة؛ ومن هنا كان لك في الاجتماع الإنساني شأن ليس كشأن المرأة؛ بل كشأن المادة. وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منزلة المطافئ المعدة للحرائق، وبعضها بمنزلة السجون المرصدة للجرائم، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهيأ للتاريخ السيئ. وما ظلمك الاجتماع في شيء لأنك أنت في نفسك ظلم له، وإن الدواء الذي يبرئ من المرض لا يعد مرضاً للمرض. وأهون بذلك إذا عُدَّ ما دام يبرئ من العلة، فإن

درء المفاسد قبل جلب المنافع، ودرء المفسدة هو في نفسه منفعة».

قالت: «فكأنك تذهب إلى القول بأن مثلي مثل العقرب والحية وغيرهما مما لدغ أو نهش أو سمّ، وأن دأبي في الاجتماع كدأبها، فليس لها إلا القتل حيث وجدت؛ ومثل الأوبئة والحميات وما قتل وما أعدى، فليس إلا مدافعتها أو الفرار منها فراراً بالحياة لا بشيء دونها؛ وكأني في رأيك لست مخلوقة كالمرأة، بل كحيوان للأذى والمقت والخوف».

قلت: «بل مخلوقة مثل كل امرأة كانت، وكل امرأة تكون أو هي كائنة، ولكن فيك من الزيادة عليها زيادة ماء السيل على ماء النهر، وزيادة الحدة على الطبع الرزين، وزيادة الطيش على العقل. فإذا طغى النهر فأفسد وخرّب، وفارت النفس فحمقت واعتدت، وطاش العقل فزل وأخطأ - نهض ذلك عندك عذراً في وجوب التخريب والاعتداء والخطأ وتسويغها، ووجب من ثم أن تعتدل هذه الصفات الجائرة على قلوب الناس، وأن يطمئنوا إليها ويرضوه مذعنين، فلا يقيموا على النهر العاتي جباً من السدود، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجنًا من الحدود، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم: إن كان عندكم الفرار فعندنا القيود».

قالت: «كلا، ما تَبْلُغُ بي الغفلة هذا المبلغ، ولقد درست وبحثت، وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم فلا تظن غيره؛ ولكني إن أجن لا أجن إلا على نفسي، وهي لي وحدي وأنا حرة كيف أتولاها. أفأنت رادّي إلى العبودية؟».

قلت: «أنت حرة ما شئت وما وسعتك الأرض إذا كنت لنفسك، وإذا كنت لا تتصلين بأحد من الناس اتصال العلة المهلكة أو المعجزة أو المذهلة، أو اتصال الرذيلة السامة بالدم النقي».

قالت: «فإني لا أتصل بأحد، ولكنهم يغرمون بي ويتنافسون عليك فأجد في تنافسهم لذة من أمتع لذاتي».

قلت: «وكذلك نردم الحفرة إذا اعترضت طريق السابلة وقاية لمن عساه يغفل فيعثر بها، فإن بلغت أن تكون هاوية طبيعية لا حيلة فيها ومردت^(١) بها طبيعتها المنخفضة، ميّزناها بالعلامات، وضبطناها بالحدود، وسميناها بالأسماء، وجعلناها آية التحذير من الهلاك حتى لا يزل أحد فيتردى فيها. وإذا كان من ذلك أن تشهدي اقتتالهم عليك، فهذا حسبك في أن تعاستهم أن يقتتلوا، وكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني الشقاء والتعاسة».

«ثم إن في تلك اللذة منك دليلاً حيوانياً على أن في طبعك من إناث البهائم الشاردة التي تقف ليتناحر عليها ذكورها وقوف المملكة المباحة تنتظر المنتصر؛ فتقتل بإباحتها كل النفوس التي زهقت حولها، ولو هي لم تكن كذلك لم يكن شيء من ذلك؛ فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني البهيمة».

«ثم إن هذا وذلك فيك نذير بانقلاب الإنسانية ونزولها دون حدها، وتراجعها في سبيل الجاهلية الأولى، واتصالها من كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأن لم يكن علم ولا دين ولا تهذيب؛ فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني الرذيلة والسقوط».

قالت: «هم لا يتناحرون عليّ بأنيابهم ولا مخالبهم ولا قرونها، وإنما يفعلون ذلك بأموالهم».

قلت: «فلا جرم كنت بهذا في لغة الاجتماع معنى من معاني السفه والفقر والخراب».

قالت: «ولكن كم من رجل أحبني فرأى في آية الإبداع الإلهي، فكان لا ينالني إلا كما ينال المؤمن لذة قلبه».

قلت: «فمنذ أبدع الأصنام وسلطها على الهوى ثم سلطها بالهوى على كهنتها وعابديها، فما يرون الحجر المعبود حجرًا إلا لأن عليه بناء ملكوت السموات، ولا البقرة المؤلهة بقرة إلا لأنها تجر محراث الوجود، ولا الحشرة المقدسة حشرة تذب ديببها البطيء إلا لأنها تحمل الخليقة. لا جرم كنت بذلك في لغة الاجتماع معنى من معاني الضلالة».

قالت: «أتحسب أنك أعييتني في مأخذ الحُجَج واستنباط البراهين؟».

قلت: «فماذا؟».

قالت: «إني أعد الزواج أسراً واستعباداً، وقد بلغت من العلم مبلغاً لا أرى فيه أن تكون حرיתי محدودة بسلطة رجل بين كلمتي: لا، ونعم، فأثرت أن أتخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه، وعرفته لأتقيه على نفسي، ولأتقيه لأبتلي به ولأصرفه في منافعِي؛ فليس لي في الاجتماع زوج ولكن لي الحب، وليس لي فيه أهل ولكن لي الجمال».

قلت: «أفلا يتسلط على حريتك الدينار والدرهم؟ وإذا أنت بقيت للجمال فهل الجمال سيبقى لك؟ وإذا كانت لك مدة في الحب فهل هو خالد عليك؟ ألا ترين أنك تزرعين في أيام الحب بذور أيام الحسرة؟ وأنت متى كبرت عن سن المرأة فستنتهين لا محالة إلى أمد من العمر يخيم عليك في مظلمة كالقبر لا نهار فيه ولا ليل؟ وهل أنت من المجتمع الإنساني إلا مقام الصبي من أهله؛ إذ لا مذهب لك من دونه ولا غناء في نفسك إلا به؟ أفترين للصبي أن يتفلت من نظام أهله ويتحلل من آدابهم ثم لا تكون وسيلته إلى ذلك إلا أن ينقلب لصاً،

بيته بيوت الناس جميعاً، فليس له في الاجتماع مال ولكن له السرقة، وليس له فيه أهل ولكن له الخيلة؟ بذلك، ولا جرم كنت في لغة هذا الاجتماع معنى من معاني السخرية والمقت.

قالت: «فأنا في الاجتماع تعاسة، وبهيمة، ورذيلة، وفقير، وضلالة، وسخرية. ولكن، أأست ترى هذه الصفات بعينها في كل الناس، على بعض التفاوت في مقاديرها، والتنوع في أشكالها، والاختلاف في أسبابها؟ وهل الرجل الفاجر إلا كالمرأة الفاجرة؟».

قلت: «لقد فجر من الرجال من لا تحصيهم الملايين، فهل علمت أن فاجراً منهم حمل تسعة أشهر ووضع؟ ألا ترين أن الطبيعة جعلت لكل حكماً وهيأت لكل موضعاً؟ وهل سواء في طبيعة الألم وخطره وعاقبته على الحياة أن يكون الدُّمل على ظاهر الجلد، حيث يتلذع على نفسه ويرى ويحد، وأن يكون في باطن الجوف حيث يخشى منه على غيره أكثر مما يخاف على موضعه؟».

قالت: «فكان الرجل عندك أظهر فجوراً من المرأة؟».

قلت: «بل هو هي في اللعنة والسقوط، والنعل أخت النعل، واثنتاهما على طراق واحد، ولكنه إن لم يكن أعقل من المرأة بفكره فهي أعقل منه بحواسها؛ وإن يكن أقدر في قوته فهي أقدر في عواطفها؛ وإن يكن في البلية عود الثقاب فهي بعد الحريق كله؛ ولذا كان من الطبيعي أن تحاط المرأة في الاعتبار بالمعاني الاجتماعية الكبرى؛ إذا كانت هي الغرض الذي تمتثله القسي الرامية؛ فهي في معنى الكمال الأصل لأنها الأمومة؛ وهي في العفة الأصل لأنها الزوجية؛ وهي في الحياء الأصل لأنها العرض؛ وكذلك هي الأصل في المعركة الجنسية لأنها المقاومة والمدافعة للرجل؛ والأصل في الفضيلة الإنسانية لأنها المنشأ والمربي للطفل؛ والأصل في الشرف الاجتماعي لأنها المثال الأدبي للجميع؛ ومن ثم

كان سقوطها سقوطاً لهذه المعاني كلها، فهو تهدم الأساس لا الحائط، وفساد الجذع لا الفرع، وعلة نفس الاجتماع لا علة جسمه».

«هيات هيات، فلن تشعر المرأة الساقطة إلا شعور من فقدت نفسها التي كانت نفسها وبدلت أخرى لا تلائمها؛ فهي أبداً هائمة وراء نفسها الأولى؛ تبحث عنها ولا تنساها؛ لأن ذلك الأصل الطبيعي لا يزال يناجيها في قلبها بلغة الأمومة والزوجية والحياء والفضيلة. وما نفسها الشريفة إلا جواب هذه اللغة وهي ليست فيها، فكأنها تحمل على حياتها أربع جرائم في جريمة؛ هي أشقى النساء، ترى في ذات عقلها البرهان العقلي على أنها امرأة ساقطة».

* * *

فتغرغرت عيناها بندى رقيق من الدمع وقالت: «لما كنت فتاة...».

فقطعت عليها الكلام وقلت: «في تلك الفتاة كل البراهين فسلها؛ إنها هي نفسك الهاربة منك».

فوجت هنيئةً لهذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهماً، وجاءها الدمع الطاهر يجري من أقصى الطفولة؛ فخالطني بثها وحزنها كأن دموعها تسقط على مواقع من نفسي، فقلت: «أناذين في كلمة؟».

قالت: «بل أسألك أن تتكلم، فإن مدامعي هذه عرضت لي كالمنطرة السانحة في حميم القيظ من صميم الصيف على أرض مغبرة مقشعرة تثور سخطاً على كل قدم تطوؤها؛ وإن فكري ليكلمني الساعة بلسانك كما يدوي الناقوس بصوته العالي الرنان، بعد أن كان هذه الناقوس محتقناً في بها يطيف به من الضغط؛ فكان لا يدق إلا دقات مصمتة لا رنين فيها كأنه ناقوس من الخشب».

«آه! لقد كنت كالغدير الصافي: لا يعرف ماؤه إلا وجه السماء وضوء

القمرين وأخيلة النجوم وظلال الشجر والنبات، فأصبحت كالماء الذي كثرت واردته من البهائم، فهي تختبئه بأرجلها وتضيف إلى وحوله وحولها، ولا تستعذبه إلا أن تغشي أعلاه بطبقة من أسفله، وكلما تراءت صورها في كدورة الماء حسبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية، ولا تعلم أنه يلعنها بإظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تعي».

«أحسبون أن قلب المرأة حين يُشترى بالمال يكون أطهر من خرقة قدرة تتناولها يد أقدر منها، أو أئمن من فتات مائدة يترك لحيوان أعجم؟ ألا إن قلب المرأة لا يباع أبداً، وإنما هي حين تبيعهم: تبيعهم معدتها باسم القلب. إنك إن لم تأخذ القلب هبة عن تحب فما أنت من حبها في (خذ) ولكن في (هات) وأخواتها».

«يحسب الناس أنه لا تُفَرِّط امرأة في الحب ما تفرط المرأة الساقطة، وما علموا أنها لا تجد الرجل فتجد الحب. إنما الرجال في عين هذه المرأة رجال مصنوعون، فهي معهم امرأة مصنوعة يملك كل رجل إغضاها؛ لأن صناعتها لإرضاء كل رجل. ولعل هذا من رحمة الله بها؛ فإن أكبر شقائها أن تجمع الدار بينها وبين رجل تحبه وتستهييم به، إذ تألم لذلك ألماً خاصاً فيه تهكم الرذيلة والفضيلة معاً، إن هذا الرجل هو البطل الفذ الذي يكون في قدرته أن يرجع لها ذلك العالم الذي أطرحها ونبذها، فهو عندها يغمر الناس أجمعين، ولكنها قلما وجدته إلا لتعرف به حقيقة عارها. وإذا قدر للأعمى أن يبصر ساعة واحدة ثم يرتد إلى ظلامه، فما أبصر ولكن تضاعف له العمى!».

«المرأة الساقطة يائسة من البعولة، وذلك عقاب حياتها، ثم هي لا تندفع إلا في الطريق التي تكرهها، وذلك عقاب نفسها؛ فالله أرحم من أن يزيدا بلاء الحب الذي هو عقاب شرفها وفضيلتها؛ فإن ابتليت به فقليلاً ما يتفق ذلك،

حتى الساقطة العاشقة عشقًا صحيحًا، وتبقى ساقطة أندر وجودًا من البغي
التائبة توبة صحيحة وتبقى بغيًا».

* * *

يا عجبًا لضمير المرأة يضل في ليل دامس من ذنوبها ثم تلمع له دمعة طاهرة
في عينها فتكون كنجمة القطب؛ يعرف بها كيف يتجه وكيف يهتدي وكيف كان
ضلاله. وكأن الله ما سلط الدموع على النساء وجعلها طبيعة فيهم إلا لتكون
هذه الدموع ذريعة من ذرائع الإنسانية تحفظ الرقة في مثال الرقة، كما جعل
البحار في الأرض وسيلة من وسائل الحياة عليها تحفظ الروح والنشاط لها.
ثم قلت: «كانت المرأة نصف الإنسانية فصارت ربعها».
قالت: «وكيف؟».

قلت: «ألا ترينها انقسمت في هذه المدينة إلى قسمين متناقضين: الزوجة
وال...».

قالت: «حسبك، خذ في غير هذا، فقد أبثتكَ ذات نفسي، وما ينفعك ولا
ينفعني أن تنقض السور الذي أقمته حول حقيقتي؛ فإن كل قوى الكون عاجزة
عن إرجاع ورقة واحدة انتشرت من زهرتها».

ثم وثبت إلى البيانة، فصدحت عليها بلحن من ألحانها، كان صرخة من
ضميرها صاعدة إلى عرش الله في صوت الإنسانية الباكي، ثم ابتسمت
وسلمت، فانصرفت وكأنني ما تكلمت ولا تكلمت، وبقيت الأقدار مكانها فما
تأخرت ولا تقدمت.

* * *

ليس على الهاوية أرض تغطيها؛ فهل تغطيها الفلسفة؟

وقد خسف^(١) بها قلبها في الأرض، فهل تسوِّيها الحجج والمعاذير؟

ولو كانت الحصباء فيها بين لؤلؤة وزمردة وياقوتة، فهل من يدق عنقه في الهاوية ليموت على أرض من الجوهر؟

الهاوية في الطبيعة، والساقطة في الإنسانية؛ كلتاها أرض كالمرأة وامرأة كالأرض.

وكذلك يخلق الطيب والخبيث: {ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض}.

(١) خسف المكان: أي ذهب في الأرض.